مدرستان في الرواية الكلبية والزبيرية

يمثل محمد بن السائب الكلبي (ت 146هـ) مؤسس المدرسة الكوفية في الأخبار والأنساب، وهي مدرسة اتسمت باتساع النطاق وغزارة المادة، وانفتاحها على الخيال الشعبي والإسرائيليات، مع ميل شيعي واضح. معظم من كتب في أنساب العرب، كابن حزم والبلاذري وابن دريد، أخذ عنه أو عن ابنه هشام.

في المقابل، أسس المصعب بن عبد الله الزبيري (ت 236هـ) المدرسة المدنية القرشية المتخصصة في نسب قريش، متميزة بالاقتصار على المعلومات الموثوقة عن قريش، فكانت المرجع الأعلى في هذا الباب، وأثره ظاهر في أعمال الزبير بن بكار وابن سعد وغيرهما.

المقارنة بين المدرستين تكشف:

- **الاتساع والشمول** :الكلبي أوسع مادة ويغطي الجزيرة كلها، بينما المصعب أكثر تخصصًا.
- **الضبط والتحقيق** :المصعب أوثق عند أهل الحديث وأدق في نسب قريش، والكلبي أقل ضبطًا لكنه لا يُستغنى عنه في غير قريش.
- **الحياد** :الكلبي متأثر بميوله الشيعية، والمصعب بولائه القرشي الزبيري، وكلاهما ليس خاليًا من الانحياز.
- **المرجعية** :الكلبي هو المصدر الأول للأنساب القحطانية والشاملة، والمصعب هو المرجع الأوثق في قريش.

الجذور النسبية للزبيرية والتحول السياسي

ينتسب الزبيريون إلى الزبير بن العوام بن خويلد، أحد بطون بني أسد بن عبد العزى من قريش، وهم أقارب للنبي ﷺ من جهة خديجة بنت خويلد. بعد مقتل عثمان، كان الزبير بن العوام في صف عائشة وطلحة في معركة الجمل ضد علي بن أبي طالب، ما جعل ذريته في موقع حساس بين التيارات السياسية.

دولة عبد الله بن الزبير (64–73هـ) كانت ذروة المشروع السياسي الزبيري، إذ بويع خليفة بعد موت يزيد بن معاوية، وامتدت سلطته من الحجاز إلى العراق واليمن وأجزاء من الشام ومصر. رفعت الزبيرية حينها خطابًا دينيًا–شرعيًا ضد الأمويين، مؤكدة أحقية آل الزبير بالخلافة. تحالفاتهم شملت قبائل الحجاز (الأنصار، أسد، كنانة)، وبعض قبائل تميم واليمن، وفئات من الشيعة الذين رأوا فيه بديلاً مرحليًا عن الأمويين.

بعد مقتل عبد الله وصلبه في مكة، انتهت الدولة سياسيًا، لكن الوعي الزبيري ظل حاضرًا، خاصة في المدينة، من خلال الرواية التاريخية والأنسابية. ومع قيام الدولة العباسية، اندمجت معظم الأحزاب السياسية، وبقيت المعارضة مقتصرة على التيار الشيعي–الطالبي، فيما تحولت الزبيرية إلى أثر فكري وتاريخي.

سمات الأيديولوجيا الزبيرية

1. التركيز على شرعية قريش وإبراز بيت الزبير كنموذج للبطولة والإيمان.
2. تحجيم الدور الأموي في الرواية التاريخية أو تصويره بأقل مجد.
3. علاقة متحفظة مع الشيعة: ليست علويّة، لكنها تشترك معهم في معارضة الأمويين.
4. تقديس الحجاز كمركز للخلافة الشرعية في مقابل مركزية دمشق الأموية.

أثر الأيديولوجيا على المصعب بن عبد الله الزبيري

وُلد المصعب بعد قرن ونصف من مقتل عبد الله بن الزبير، لكن أسرته كانت لا تزال تحمل إرثًا فكريًا وسياسيًا واضحًا، انعكس في منهجه العلمي:

- **في الأنساب**: خصّص كتابه *نسب قريش* لبطون قريش، مع عناية خاصة ببيت الزبير، وانتقاء المادة بحيث يتجنب المثالب ويُسهب في ذكر الفضائل، خاصة أدوار الزبيريين في الفتح والسياسة.
- **في الأخبار**: رتب السرد التاريخي ليظهر الزبيريون في موقع البطولة والإصلاح، وخفف من حدة الصراع مع آل البيت، عارضًا المواقف بروح تصالحية تناسب إطار الدولة العباسية.
- **في مصادره**: اعتمد على الرواية المدنية القريبة من الصحابة وأبنائهم، مبتعدًا عن النزعة الكوفية المليئة بالإسرائيليات التي تميزت بها مدرسة الكلبي.

بهذا التمازج بين المدرسة المدنية القرشية والانحياز الزبيري، قدّم المصعب نموذجًا لعمل نسّابة–مؤرخ يزاوج بين التوثيق الدقيق ضمن نطاق محدد، وصياغة السرد بما يحفظ إرث أسرته ومكانتها في الذاكرة الإسلامية.

مقارنة بين الزبيرية والكوفيّة

المعيار	المدرسة الزبيرية (المصعب)	المدرسة الكوفية (الكلبي)
النطاق	ضيق، يركز على قريش خاصة	واسع، يشمل قبائل العرب كلها
الانحياز	قرشي – زبيري	يمني – علوي الميل
نوع المادة	موثقة، قليلة الإسرائيليات	ممتدة، تشمل أخبارًا شعبية وإسرائيليات
الغاية	حفظ مجد قريش وآل الزبير	حفظ الأنساب العامة مع إظهار آل البيت
الموثوقية الحديثية	أعلى	ضعيفة

الأيديولوجيا الزبيرية: النشأة والمرتكزات

الأيديولوجيا الزبيرية تيار سياسي نشأ في الحجاز ضد الأمويين، مرتكزًا على شرعية قريش عمومًا، وآل الزبير خصوصًا. أسس عبد الله بن الزبير هذا التيار، وجعله في قالب خاص قائم على بغض الهاشميين عامة وآل أبي طالب خاصة، فكان مشروعه منافسًا للطرفين الأموي والهاشمي. وبعد مقتله، تحولت الفكرة إلى تيار أكاديمي-توثيقي أكثر منه سياسي مباشر، إذ استمرت الأسرة في حملها عبر الرواية والتأريخ، مع حضور قوي في الذاكرة السنية. إدراك هذا البعد ضروري لفهم منهجهم في السرد، ولماذا يُسهبون في ذكر فروع قريش ويتحفظون على خصومهم.

أولًا: رأس المال النسبي المزدوج

امتلك آل الزبير رأس مال رمزي في مجتمع عربي-إسلامي شديد الحساسية لمسألة النسب، قادمًا من خطين:

1. **البكري الصديقي (من جهة الأم)**: فأم عبد الله بن الزبير هي أسماء بنت أبي بكر، وأبوها الخليفة الأول أبو بكر الصديق. هذا يمنحهم شرف القرب من إمام الأمة الأول الذي حسم الخلافة بعد وفاة النبي ﷺ، وكرّس صورة "الصديق" المقرونة بالوفاء والمسابقة. وهو رصيد يُستخدم لمقارعة أي دعوى هاشمية أو أموية، عبر التذكير بأن جدهم هو من وحّد الأمة بعد الفتنة الأولى.
2. **الزبيري الحواري (من جهة الأب)**: والده الزبير بن العوام، حواري الرسول ﷺ، وأمه صفية بنت عبد المطلب (عمة النبي)، وعمة أبيه خديجة بنت خويلد زوجة النبي. هذا النسب

يربطهم ببيت النبوة دمًا ونسبًا، ويمنحهم شرعية هاشمية جزئية، دون أن يكونوا تحت لواء علي وذريته.

هذا المزج بين الرمزين – الخلافة الأولى والقرب الدموي من النبي – خلق شعورًا بالتفوق على أي فرع قرشي آخر.

ثانيًا: عبد الله بن الزبير وبناء الأيديولوجيا

حوّل عبد الله بن الزبير هذا الرصيد إلى مشروع سياسي حزبي. اعتمد على **التفاخر الانتقائي،** مكررًا في خطبه أنه أول مولود للمهاجرين في المدينة، حفيد الصديق، وابن الحواري، وقريب النبي من جهات صفية وخديجة وعائشة. لم يكن هاشميًا ولا شيعيًا، بل رأى نفسه ندًّا للحسن والحسين، وأحق منهما بالخلافة، وفي أحسن الأحوال مساويًا لعلي في الفضل. وقد أقنع آل الزبير أن مكانتهم تفوق الجميع، وأن مشروعهم السياسي بديل شرعي عن الأمويين والهاشميين، فتبنوا خطابًا عائليًا يتكرر في الأجيال اللاحقة.

ثالثًا: ترسيخ الأيديولوجيا بعد سقوط المشروع السياسي

بعد مقتل عبد الله، تحولت الأيديولوجيا إلى تراث عائلي فكري يُنقل بالرواية والتأريخ. قربهم من عائشة – خالتهم – منحهم سلطة رواية مباشرة عن بيت النبي، دون وسطاء، مما جعل العامة يسلمون برواياتهم. لم يكونوا بحاجة إلى اختلاق صريح، بل مارسوا **الانتقاء والتأطير** :إبراز ما يرفع مكانتهم، وإغفال أو تخفيف ما يقوي منافسيهم. أبرزوا الزبير وطلحة في الفتنة كـ "شهداء مظلومين"، وتجنبوا ما يعكس خلافهم مع علي سلبًا. وظّفوا الفضائل القرشية، خاصة المرتبطة بجَدّهم أبي بكر وأقاربه، ووالدهم الزبير، وأكدوا أن قريش هي أهل الخلافة الشرعية، وأن بيت الزبير صفوتها، مستفيدين من الخطاب السنّي المبكر الذي يقدّم أبا بكر كنموذج مثالي وربطه بهم.

رابعًا: الأثر في الرواية التاريخية

أصبحت الأيديولوجيا إطارًا ذهنيًا يوجّه المؤرخين الزبيريين مثل المصعب بن عبد الله الزبيري، فتركز اهتمامهم على قريش ورفع شأن بيت الزبير. اتسم السرد لديهم بالانتقائية: الإكثار من التفاصيل التي تعزز شرعيتهم، وتقليل ما يعزز شرعية بني هاشم أو الأمويين، وصوغ الأحداث بما يضع الزبيريين في مركز الشرعية السياسية والأخلاقية.

خامسًا: أسباب قبول رواياتهم

- **المكانة النسبية** :النسب إلى أبي بكر، والزبير، وصفية، وخديجة، وعائشة.
- **الشرعية الاجتماعية** :قربهم من الصحابة الكبار وشهادتهم على الأحداث.
- **التوقيت المبكر** :وجودهم في العصر الأول، قريبين من زمن الأحداث، مما أعطاهم سلطة "المصدر المباشر.